

الفراء

وأثره في كتابه: (معاني القرآن)
في تعليل وجوه القراءات ، ووضع أصوله اللغوية

بقلم الدكتور علي بن عبد الله الراجحي
الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القصيم

• مقدمة :

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويستمطر فضله ، ويدفع
نقمه ، والصلاة والسلام على خير الخلق محمد بن عبد الله ، وعلى الآل
والصحب ومن تبع بإحسان إلى يوم الدين
وبعد ؛ فإنه لا بد في دراسة أي فن من الفنون والكشف عما كان عليه ،
وما أضافه ، وما مر عليه من مراحل حتى استوي على سوقه ، لا بد له من
منهج استقرائي وصفي يقوم على أسس علمية منهجية دقيقة ، من خلال
سبره للكتب والمؤلفات ، حيث إنها لا تعكس ثقافة مؤلفيها واتجاهاتهم
العلمية بقدر ما تعكس من تراكم حضاري وثقافي كان سائداً في الفترة
الزمنية التي ألقت فيها الكتب ؛ ذلك أن الإنسان ابن بيئته وثقافته ، وهو
أشبه بزمانه منه بأبيه ، والكشف عما في كتب تلك المرحلة من قضايا
علمية ، وفنون يجلعه نوعاً من الكشف عن المستويات العقلية والعلمية التي
تكونت فيها ونمت .

وحين يكون الكتاب دائراً في فلك القرآن ومعانيه ، فإن من أساسيات هذه
المعاني إبراد القراءات والتعليل لها ، وبيان وجهة نظر القارئ الذي قرأ
الآية أو الكلمة على نحو معين ؛ ذلك أن فن توجيه القراءات تنعكس على
الحديث عنه ، والكتابة فيه المستويات الثقافية لفنون عدة ، حيث يستخدم فيه

من فن يتناوله أصولاً عديدة كالإسناد الذي يتعلق بمعرفة تراجم الرواة وأحوالهم وضبطهم ، وكرسم المصحف الذي يتعلق بالخط العربي وواقعه التاريخي ، وكالقاعدة اللغوية التي يحتاج الاستناد عليها إلى معرفة القواعد اللغوية والخلافات فيها ، والترجيح بينها ، وكالمعنى الذي لا يقوم إلا على الإلمام بإرث العرب من الشعر والنثر ، واللهجات ، وعلم التفسير ، والانسجام بين الآيات والكلمات ، والذي يحتاج إلى معرفة علم الأصوات والبلاغة .

ومن هنا فإن دراسة هذا الجانب - جانب توجيه القراءات - في هذا الكتاب دراسة متأنية تعد - في نظري - خدمة جليلة في بيان اللبنيات الأولى لهذا الفن ، والتي صارت فيما بعد أساساً اعتمدها مؤلفو كتب الاحتجاج والتعليل حيث سجل لنا معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) ، ومعاني القرآن للأخفش (ت ٢١٥هـ) ما كان عليه أمر الاحتجاج في مفتتح القرن الثالث الهجري حيث وضعت معظم أصول توجيه القراءات في هذه الحقبة .

ولعل هذا البحث ومن خلال أحد هذين الكتابين وهو كتاب الفراء يغطي شيئاً مما كانت عليه المرحلة الأولى من مراحل تكوين أصول هذا الفن ، والتي استقر معظمها عند من فن جاء بعد ذلك . وإن كان وضع القواطع الزمنية في المسائل الإنسانية ، والفكرية يعد غاية في الصعوبة ؛ حيث تتشابك عوامل كثيرة في تكوين الفكرة أو الموقف ، فالحكم في هذه القضايا ينصب على الاتجاه العام .

وإنني لأرجو أن تتبع هذه الدراسة دراسات أخرى من كتب المعاني أو ما يشبهها التي تلامس هذا الجانب تكون أكثر عمقاً وأثرى فكرياً وأعظم نفعاً من هذه الدراسة حتى نقف على حلقات تطوّر هذا الفن النفيس ومسالك نموه.

والله وحده المستعان وعليه التكلان...

• التمهيد:

الفراء وكتابه (معاني القرآن) " نبذة مختصرة "

أ - الفراء^(١):

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، منحدر من إقليم الديلم في البلاد الفارسية .

ولقب الفراء يطلق على من يخط الفراء أو يبيعها ، ولم يعرف عنه أنه اشتغل هو أو أحد من آبائه في هذه الحرفة ؛ لذا قيل: إنه الذي يفري الكلام ، أي يحسن تقطيعه وتفصيله.

ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ ، ونشأ وتعلم فيها ؛ إذ كانت حافلة بالعلم والعلماء ، كان قوي الحافظة ، كثيرًا ما استغنى بحفظه عن الكتابة ، بلغ في العلم المكانة السامية والغاية التي لا يعددها ، وكان زعيم الكوفيين بعد الكسائي ، قال ثعلب: (لولا الفراء لما كانت عربية ، لأنه خلّصها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية ، لأنها كانت تُتنازع ويدعيها كل من أراد).

وقد استقر به المقام في بغداد إلا أنه توفي - رحمه الله - وهو في طريق عودته من مكة سنة ٢٠٧هـ .

ب - كتابه (معاني القرآن) :

مصطلح يعني به ما يشكل في القرآن ويحتاج إلى فهم وإيضاح ، أورد ابن النديم في الفهرست سبب تأليف الفراء لكتابه فقال: «قال أبو العباس ثعلب: كان السبب في إملاء الفراء في المعاني أن عمر بن بكير كان من

(١) ينظر في ترجمته والحديث عنه : المعارف : ٥٤٥ ، مراتب النحويين: ١٣٩ ، طبقات النحويين واللغويين: ١٣١ ، وفیات الأعيان ١٧٦/٦ ، أنباء الرواة ٧/٤ ، معجم الأبناء ٩/٢٠ - ١٠ ، بغية الوعاة ٣٣٣/٢ وغيرها .

أصحابه ، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألتني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ، فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت .

فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أُمِلَّ عليكم كتاباً في القرآن ، وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب ، ففسرها ثم توفي الكتاب كله: يقرأ الرجل ويفسر الفراء ، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه ^(٢).

• نشأة فن توجيه القراءات والاحتجاج لها:

قد عرف السلف قيمة ما خصَّهم الله به من الذكر ، فهبوا يفتشون فيه ويبحثون فأقاموا حوله مالا يحصى من الدراسات ، والبحوث ، فكان هذا الكتاب العزيز محور جميع الدراسات الإسلامية والعربية في قرون تفتق العلوم ، وتكون المعارف. ومن المعلوم أن السائد من الثقافة العامة عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتطلب معرفة تفسير كل كلمة من كلمات القرآن الكريم فضلاً عن تطلبه توجيه القراءات المختلفة ، ومن ثم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل كلمة من كلمات القرآن ، ولم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه وجه قراءة من القراءات القرآنية لا من جهة اللفظ ، ولا من جهة المعنى - فيما أعلم - ولكن لم يمض وقت طويل حتى بزغت بواكير هذا الفن في هيئة ملاحظات أولية ، تروى عن بعض

(٢) ينظر: الفهرست : ٩٩ ، وطبقات النحويين واللغويين : ١٣٢ ، ووفيات الأعيان ١٧٨/٦ .

الصحابة والتابعين والقراء حين بدأ التساؤل بينهم عن معاني بعض الكلمات القرآنية ، وتصديهم - وعلى رأسهم ابن عباس - لتفسير القرآن الكريم ، ومن المعلوم أنه لابد أن يصاحب هذا شيء من الاستعراض لبعض القراءات التي يؤدي الخلاف بينها إلى تنوع المعنى أو التي تخالف اللهجات الحجازية بصورة واضحة .

من ذلك ما ذكر عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه كان يرجح بعض القراءات ويرد بعضها ومن هذا ما روي عنه أنه كان لا يرى ضم الصاد من قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(٣) والضم قراءة عدد من القراء العشرة^(٤) كما روي عنه أنه كان يقرأ ﴿نُنْشِرُهَا﴾ بالراء المهملة وضم النون من قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾^(٥) ، ويحتج لقراءته بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(٦) وكأنه يذهب بذلك إلى أن معناها: نُحْيِيهَا^(٧) وروي - كذلك - عن ابن عباس وعائشة وابن الزبير - رضي الله عنهم - أنهم أنكروا قراءة من قرأ: ﴿عندها جنة المأوى﴾^(٨) وهي قراءة عدد من الصحابة^(٩) وذلك لأن المعنى ليس عليها ؛ لعدم مناسبتها للسياق العام.

(٣) الزخرف : ٥٧ .

(٤) النشر ٣٥٤/٢ ، والبحر ٢٥/٨ .

(٥) البقرة : ٢٥٩ .

(٦) عبس : ٢٢ .

(٧) ينظر : معاني القرآن للقراء ١٧٣/١ .

(٨) النجم : ١٥ .

(٩) المحتسب : ٢٩٣/٢ .

ولا يخفى أن توهين قراءة من القراءات في كلمة من الكلمات هو تركيبة للقراءة الأخرى فيها.

وارتقى فنّ توجيه القراءات كما يرتقي كل علم يبدأ بفكرة ، ثم بمجموعة من الملاحظات الجزئية ، ثم تظهر قسّماته ومعالمه ، ولعلّ ما جرى في المحاورة بين حمزة وتلميذه الكسائي ما يصور جوّ الاحتجاج للقراءة في منتصف القرن الثاني الهجري ، فقد ذكر الكسائي أن حمزة كان يقرئ في مسجد (السبيع) في الكوفة ، فتقدم الكسائي ، فقرأ من سورة يوسف ، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾^(١٠) قرأ: " الذيب " من غير همز ، فقال له حمزة: الذنب بالهمز ! فقال له الكسائي: وكذلك أهمز (الحوت) (فالتقمه الحوت) قال: لا . قال: فلم همزت الذنب ولم تهمز الحوت ، وهذا فأكله الذنب ، وهذا فالتقمه الحوت !؟

فرفع حمزة بصره إلى خلاد الأحول ، فتقدم إلى الكسائي في جماعة من أهل المجلس ، فناظروه ، فلم يصنعوا شيئاً ، فقالوا: أفدنا - رحمك الله - ، فقال: إذا نسبت الرجل إلى الذنب تقول: استذاب الرجل ، ولو قلت: استذاب بغير همز لكنت إنما نسبته إلى الهزال ، تقول: استذاب الرجل ، إذا استذاب شحمه ، فإذا نسبته إلى الحوت تقول: استحات الرجل ، أي كثر لحمه ؛ لأن الحوت يأكل كثيراً ، ولا يجوز فيه الهمز ، فلهذه العلة همز الذنب ولم يهمز الحوت^(١١).

وإذا علمنا أن العربية هي أهم أدوات من يتصدى لتوجيه القراءات ، فإن التوسع في رواية القراءات وتتبعها كان دافعاً في بعض الأحيان إلى التبحر في اللغة والنحو والرواية عن الأعراب ، يقول الكسائي: كنت أعرض على حمزة - أي القراءة - فتلزمني الحجة ، فلا أجدها فأرجع إلى المختصر

(١٠) يوسف : ١٧ .

(١١) أنباه الرواة ٢/ ٢٥٨ ، ومجالس العلماء ٢٦٦ .

الذي عمله أهل الكوفة في النحو ، فلا أجد فيه شيئاً ، وكانت قبائل العرب متصلة بظاهر الكوفة ، فخرجت إليهم فجعلت أسألهم ، فيجيبونني ، فأنظر فيما معي ، فأجد الحجة (١٢).

وفي كتب اللغة ، والأصول ، وعلوم القرآن والتفسير ، ومعاني القرآن جملة وافرة من توجيه القراءات والاحتجاج لها ، يتبَّع بها اللغويون إلى الاستشهاد على بعض قواعدهم ، أو إلى ترجيح وجه لغوي على آخر ، ويعتضد بها الفقهاء في استنباط لأحكام ، ويستعين بها المفسرون على بيان المعاني التي تضمنتها آيات القرآن .

ولعل كتب معاني القرآن - لصيغة معظم مؤلفيها بالدراسات اللغوية - هي الأقرب والأكثر تناولاً لتلك القراءات والاحتجاج لها ، والتي كان في مطلعها كتاب معاني القرآن للفرّاء (ت ٢٠٧هـ) ومعاني القرآن للأخفش (ت ٢١٥هـ) ، فقد كان لهما - حسب ما توصلت إليه في القراءة التتبعية - السبق في تسجيل ما كان عليه أمر الاحتجاج اللغوي للقراءات في مفتتح القرن الثالث الهجري حيث وضعت معظم أصول توجيه القراءات في هذه الحقبة . ورغم كون كتب معاني القرآن ليست كتب احتجاج بالاختصاص ، إلا أنها فتحت الباب ، ورسمت الطريق ، ووضعت المعالم التي أنارت لمؤلفي كتب الاحتجاج التي جاءت بعد ذلك ، فاعتمدوا عليها في كثير من الوجوه والأصول كما سنبينه في هذا البحث إن شاء الله .

ولعل أول من ذكر أنه ألّف كتاباً مستقلاً في توجيه القراءات هو المبرّد (ت ٢٨٥هـ) كما ذكره ابن النديم اسمه (احتجاج القراءة) (١٣) وجاء اختيار ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) سبع قراءات في كتابه (السبعة) فكان منعطفاً

(١٢) مجالس العلماء ٢٦٦.

(١٣) الفهرست ٨٨.

وحدثًا هامًا في فن توجيه القراءات ، حيث تلقاه الناس بالقبول ، وصارت
القراءات السبع في القرن الرابع وما بعده محور دراسات الاعتلال
للقرارات .

وأيا ما كان موقف العلماء من تسبيعه السبعة فقد فتحت مكانة الرجل
العلمية الباب لدراسات مستقلة في توجيه القراءات والاحتجاج لها ، فكانت
الحجة لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) ، والحجة للفراسي (ت ٣٧٧هـ) ،
والمحتسب لابن جني (ت ٣٩٢هـ) ، والكشف لمكي بن أبي طالب
(ت ٤٣٧هـ) وغيرها ، مما عرج بالفن من مرحلة الملاحظات الأولية في
القرنين الأول والثاني إلى مرحلة العمق والنضج ، وبعده الاستقلال في
مطلع القرن الثالث الهجري وما تلاه ، فاتضحت معالمه وترسخت أصوله .

• الأصول التي أسس لها الفراء واعتمد عليها في التوجيه:

من خلال تلك الملاحظات الجزئية التي انطلق منها فن توجيه القراءات
على أيدي بعض الصحابة والتابعين ظهرت معالم وقسمات أصول هذا
الفن ، وبدأت بالظهور على يد من جاء مطلع القرن الثالث الهجري كما
أسلفنا كالفراء ، والأخفش في كتابيهما (معاني القرآن) حيث وضع أهم
الأسس والأصول لهذا الفن من خلال تناولهما للقراءات وتعليلها بعمق
ورسوخ ، حتى صارت تلك الأصول مسلّمات اعتمدها من جاء بعدهما من
أصحاب مؤلفات التوجيه والتعليل ، لذا فإنك قد تجدها متقاربة جدًا ، إلا أن
نسبة الاعتماد على كل أصل تختلف من مصنف إلى آخر ، ومرد ذلك
الاختلاف ربما إلا اختلاف النسيج الثقافي بينهم ، وتقدير كل واحد منهم ،
فواحد يقدم القراءة الأكثر موافقة لرسم المصحف وآخر يقدم القراءة
الألصق بالقاعدة اللغوية ، والأصرح معنى وهكذا ..

وقد يتعسف الواحد منهم ، فيدلي بحجج لا تنهض بالقراءة؛ لتكون في مصاف القراءات التي تقابلها ، وإليك لمحة عن أهم الأصول التي ظهرت لي في كتاب الفراء لتبيين مدى ما انتهى إليه وضع أصول هذا الفن في هذه الحقبة ، والأثر الذي تركه في كتب توجيه القراءات التي جاءت بعده من هذه الأصول التي أنضجها هذا العالم ومن عاصره كالأخفش .

- الأصل الأول: القاعدة النحوية :

لقد كانت كتب المعاني وفي مقدمتها معاني القرآن للفراء مصادر أصيلة للعلل ، اعتمدت عليها كتب توجيه القراءات التي جاءت بعدها ، ومن كثرة التعليل لها في كتب المعاني ربما تخيلت أنها قامت على هذا الأساس ، وأنها الغاية الكبرى لها فتراها تعلل لها بعلل العربية ، وبيان حجتها في اللغة من حيث الفصاحة والصحة ، أو الجودة والضعف ، أو الشذوذ واللحن من خلال مقاييس النحاة وعللهم . والفراء وهو أحدهم رغم ذلك - قد حفظ في الغالب الأعم - للقراءة هيبتها ، وللقارئ جلاله . وكذلك لم يكن مجرد ناقل ، أو مقلد ؛ بل اتصف بالإمامة والاجتهاد ، فتشعر معه بروح متميزة مستقلة ، توافق هؤلاء ، وتخالف أولئك ، وتختار ما تطمئن إليه بنزعه الكوفية التي ظهرت في التوجيه على المذهب الكوفي ، فلم يجعل من قواعد النحاة سوطاً على قراءة القراء ، بل ترى في كتابه - في الغالب - مذهباً عدلاً يستجلب لها الحجج والعلل والأدلة وإن كان - كما أسلفت - على المذهب الكوفي .

وهذه نماذج من اعتماده على القاعدة النحوية وجعلها أصلاً من أصول التوجيه ، تصور ما نقول:

* في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(١٤) حيث قرأها الجمهور بالرفع^(١٥) ،
ونكر الفراء أن القراء اجتمعوا على ذلك ، ثم نقل عن أهل البدو أن منهم
من ينصب الدال^(١٦) ومنهم من يخفضها^(١٧) ثم جعل يعلل لهذه القراءات ،
فقال :

(من نصب فإنه يقول: (الحمد) ليس باسم إنما هو مصدر ، يجوز لقائله
أن يقول: أحمد الله ، فإذا صلح مكان المصدر (فَعَلَ أو يَفْعَل) جاز فيه
النصب ، من ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ
الرِّقَابِ﴾^(١٨) يصلح في مثله من الكلام أن يقول: فاضربوا الرقاب ، ومن
ذلك قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾^(١٩) ، يصلح أن
تقول في مثله من الكلام: نعوذ بالله ، ومنه قول العرب: سقيا لك ، ورعيًا
لك ، يجوز مكانه: سقاك الله ، ورعاك الله.

وأما من خفض الدال من (الحمد) فإنه قال: هذه كلمة كثرت على ألسن
العرب حتى صارت كالاسم الواحد ، فتقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد
من كلامهم ضمة بعدها كسرة ، أو كسرة بعدها ضمة ، ووجدوا الكسرتين
قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل: إيل ، فكسروا الدال ليكون على المثال
من أسمائهم ..)^(٢٠) فنراه يسهب في التعليل ويفصل ، ويسوق الأمثلة

(١٤) الفاتحة : ١.

(١٥) وهي قراءة جميع للقراء السبعة.

(١٦) وفي الشواذ (١) زاد رؤية ، وفي الجامع ١٣٥/١ زاد سفيان بن عيينة ، وزاد في البحر
١٨/١ هارون العنكي.

(١٧) وقد قرأها الحسن البصري ، وهي منسوبة إلى لهجة بني تميم كما في إعراب القرآن
للنحاس ١٧٠/١ وينظر فيها : مختصر في شواذ القرآن ص ٩ ، والمحتسب ٣٧/١.

(١٨) محمد : ٤.

(١٩) يوسف : ٧٩.

(٢٠) معاني القرآن ٣/١ ، وانظر للمحتسب ٣٧/١ ومدى إفادته في تعليقه من آراء الفراء .

والشواهد التي يعزز بها تلك التوجيهات ، بل لا يهملها ، أو يغض الطرف عنها ، رغم أنها - كما يقول - ليست قراءة أحد من القراء ، وإنما نسبتها لجماعة من البدو ، لكنه يلتصق لها الوجه النحوي الذي يتوافق والكلام العربي الفصيح وإن كنا رأينا غيره ربما أنكرها - خاصة قراءة الكسر - وهم جملة من البصريين ^(٢١) ، قال عنها الزّجاج: (هذه لغة من لا يتلفت إليه ، ولا يتشاغل بالرواية عنه ، وإنما تشاغلنا نحن برواية هذا الحرف لنحذر الناس من أن يستعملوه ، أو يظن جاهل أنه يجوز في كتاب الله عز وجل ، أو في كلام ، ولم يأت لهذا نظير في كلام العرب ، ولا وجه له) ^(٢٢).

وكذلك نقل النحاس عن الأخفش الأصغر قوله عنها: إنها لا تجوز عند البصريين ^(٢٣) وحكم عليها ابن جني في المحتسب بالشذوذ قياساً واستعمالاً ^(٢٤).

ومثل هذا التعليل والتوجيه بتصويب ما حكم عليه جملة من البصريين بالخطأ أو الشذوذ أو الضعف ، جعل بعض الدارسين يحكم على الفراء بأنه يصوّب كل ما حكم عليه البصريون بالشذوذ من قراءات ويحتج بها ^(٢٥) وفي رأي أن هذا الاتجاه ليس على إطلاقه - كما أسلفت - بدليل أن الخليل وهو إمام أهل البصرة ذكر هذه اللهجة في معجمه العين ، ولم ينكرها ^(٢٦)

(٢١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس ١/١٧٠.

(٢٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٥ ، ٤٦.

(٢٣) إعراب القرن للنحاس ١/١٧٠.

(٢٤) المحتسب ١/٣٧.

(٢٥) وهو الدكتور / مهدي المخزومي في كتابه : مدرسة الكوفة / ١٤٠.

(٢٦) العين ٨/٩٩.

وقام النحاس ، وابن جني بتوجيهها والتعليل لها وذلك بإفادتهما ، ونقلهما عن الفراء وغيره ^(٢٧).

* في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً﴾ ^(٢٨) حيث قرئت (وصية) بالنصب ، والرفع ^(٢٩) ، يقول الفراء: (وهي في قراءة عبد الله: (كتب عليهم الوصية لأزواجهم) وفي قراءة أبي: (يتوفون منكم ويذرون أزواجًا فمتاع لأزواجهم) فهذه حجة لرفع الوصية .

وقد نصبها قوم منهم حمزة على إضمار فعل كأنه أمر . أي: ليوصوا لأزواجهم وصية . ولا يكون نصباً في إيقاع (يذرون) عليه ^(٣٠).

* في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ رَّانٍ﴾ ^(٣١) حيث قرئت بعدة قراءات ، ذكرها الفراء معللاً وموجهاً فقال: (إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ) ^(٣٢) - بالتشديد - قد اختلف فيه القراء فقال بعضهم: هو لحن ولكننا نمضي عليه لئلا نخالف الكتاب ...

وقرأ أبو عمرو (إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَيْنِ) ^(٣٣) واحتج أنه بلغة عن بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: إِنَّ فِي الْمَصْحَفِ لَحْنًا وَسْتَقِيمُهُ الْعَرَب .

(٢٧) إعراب القرآن ١٧٠/١ والمحاسب ٣٧/١.

(٢٨) البقرة : ٢٤٠.

(٢٩) قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وعاصم برواية حفص ويعقوب في رواية عنه ، وقرأ باقي العشرة بالرفع ، ينظر : المبسوط ص ١٣١ ، والنشر ٢/٢٢٨.

(٣٠) معاني القرآن ١٥٦/١ ، وانظر التوجيهين في معاني القراءات ٢٠٩/١ ، والحجة للفارسي ٣٤١/٢ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢٩٩/١ وحجة القراءات لابن زنجلة ١٣٨ ، حيث يظهر فيها التأثير بتعليلات للفراء .

(٣١) طه : ٦٢.

(٣٢) هي قراءة العشرة عدا أبي عمرو ، وحفص عن عاصم ، وابن كثير . ينظر : المبسوط ٢٤٩ ، والنشر ٢/٣٢١ .

(٣٣) ينظر : السبعة ٤١٩ ، والمبسوط ٢٤٩.

قال الفراء: ولست أشتي على أن أخالف الكتاب . وقرأ بعضهم: (إن هذان لساحران) ^(٣٤) خفيفة ، فقرأنا بتشديد (إن) وبالألف على جهتين : إحداهما: على لغة بني الحارث بن كعب: يجعلون الاثنين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف ، وأنشدني رجل من الأسد عنهم يريد بني الحارث:

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى *** مساغاً لناباه الشجاع لصمًا ^(٣٥)
قال: وما رأيت أفصح من هذا الأسدي ، وحكى هذا الرجل عنهم: هذا خطٌ يدا أخي بعينه ، وذلك - وإن كان قليلاً - أقيسُ ؛ لأن العرب قالوا: مسلمون فجعلوا الواو تابعة للضمة ؛ لأن الواو لا تعرب ، ثم قالوا: رأيت المسلمين ، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم ، فلما رأوا أن الياء من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها ، وثبت مفتوحًا ؛ تركوا الألف تتبعه ، فقالوا: رجلان في كل حال . وقد اجتمعت العرب على إثبات الألف في: كلا الرجلين ، في الرفع والنصب والخفض ، وهما اثنان ، إلا بني كنانة فإنهم يقولون: رأيت كلي الرجلين ، ومررت بكلي الرجلين. وهي قبيحة قليلة ، مضوا على القياس ^(٣٦).

والوجه الآخر: أن تقول: وجدت الألف من هذا دعامة ، وليست بلام فعل ، فلما تثنيت زدت عليها نوناً ثم تركت الألف ثابتة على حالها لا تزول على كل حال ، كما قالت العرب: الذي ، ثم زادوا نوناً تدل على الجماع ،

(٣٤) وهي رواية حفص عن عاصم ، ينظر : السبعة ٤١٩ ، والمبسوط ٢٤٩ .

(٣٥) البيت للمتمس كما في اللسان (صمم) وهو في ديوانه ص ٣٤ . وينظر في نسبه هذه اللهجة لبني الحارث بن كعب في معاني القرآن للأخفش ٤٠٨/٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤٥/٣ . ونسبت لغيرهم كخثعم وزبيد وبني العنبر وبني الهجيم ومراد ، وغذرة ، ينظر البحر المحيط ٣٥٠/٧ ، وشذور الذهب ص ٤٦ .

(٣٦) ينظر : مجاز القرآن ٢١/٢ .

فقالوا: الذين في رفعهم ونصبهم وخفضهم كما تركوا (هذان) في رفعه ونصبه وخفضه . وكنانة يقولون: اللذون) (٣٧) .

وهكذا تراه يعلّل ويوجه للقراءة المقبولة عنده بعلل مستفيضة ، وبشواهد متنوعة وربما علّل لما لا يرتضيه منها بعلل أخرى ، ومنها مخالفتها لما عليه رسم المصحف ، كما في قراءة أبي عمرو (إنّ هذين لساحران) حين قال: ولست أُنْتَهِي على أن أخالف الكتاب . ووافق على قراءة التضعيف مع لزوم الألف ، وإن حكم بعضهم عليها بالّلحن ، وحجته ، أن لا يخالف الكتاب . ومقياس ذلك عنده رسم المصحف رغم أن القراءة بالتضعيف ، والنصب بالياء هي الأقيس في العربية والأوضح .

هذا وإن قبل التوجيه الأول ، فإن التوجيه الثاني قد رُدّ ، بأن الأمر لو كان كذلك لم تتقلب هذه الألف ياء في قولهم: (هذين) فانقلابها يدل على أنها للتثنية(٣٨).

وهناك توجيهات أخرى لهذه القراءة منها:

- أن (إنّ) في الآية بمعنى: (نعم) وما بعدها مبتدأ وخبر(٣٩) لكن هذا قد رُدّ بأنّ الخبر دخلت عليه اللام ، وهذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر (٤٠) .
- وقيل إن في الآية ضمير شأن محذوفاً ، وما بعد (إنّ) مبتدأ وخبر ، التقدير: إنه هذان لساحران(٤١) وقد رُدّ هذا بما رُدّ به سابقه (٤٢) .

(٣٧) معاني القرآن ١٨٣/٢-١٨٤.

(٣٨) قاله الفارسي في الحجة ٢٣١/٥.

(٣٩) ينظر مجاز القرآن ٢١/٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤٤/٣ ت، وإعراب القراءات السبع ٣٧/٢ .

(٤٠) ينظر الحجة للفارسي ٢٣٠/٥ ، والكشف عن وجوه القراءات ١٠٠/٢ ، والبيان في غريب إعراب القرآن ١٤٥/٢ .

(٤١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤٦/٣ ، ومعاني القراءات ١٠٠/٢ .

وقد اشتهر تعليل الفراء واختياره في توجيه هذه القراءة عند من جاء بعده من أهل المعاني وكتب التوجيه ، وكثير من المصادر ، حيث تناقلته عنه ونسبته إليه مما يدل على مكانة هذه التعليقات وتأثيرها في بناء أصول التوجيه - خاصة اللغوية - ونضجها على يد الفراء ومن عاصره وأثرها عليهم^(٤٣) .

والأمثلة على هذا الأصل من أصول التوجيه في القراءات وهو الأصل النحوي عند الفراء في معانيه كثيرة أفاد منها كل من جاء بعده ممن له صلة بهذا الفن^(٤٤) .

• الأصل الثاني: القواعد التصريفية:

لا يتصور أن أئمة اللغة ومنهم الفراء كانوا يفصلون بين فروع اللغة المختلفة ، ولكننا هنا نفصل بينها لاعتبارات منهجية ، تسهيلاً لاستيعابها . وقد كان للفراء منهج واضح في التعليل للقراءة التصريفية ، حيث اتكأ على عدد كبير من القواعد الصرفية التي صارت فيما بعد منطلقاً وأساساً من أسس الاحتجاج للقراءات عند أهل هذا الفن . وقد قام هذا المنهج - عنده - على إثبات النظر ومراعاة القياس ، والاتساع في الأخذ عن لغات العرب . ويمكن أن نذكر بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

(٤٢) ينظر : البيان في غريب إعراب القرآن ١٤٦/٢ ت، وإملاء ما من به الرحمن ١٢٣/٢ .
(٤٣) ينظر فيمن نقل ذلك عن الفراء وتأثر به : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦٤/٣ ، ومعاني القرآن للأخفش ٤٠٨/٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤٥/٣ ، والحجة للفارسي ٢٣١/٥ ، والكشف عن وجوه القراءات ١٠٠/٢ وحجة للقراءات لابن زنجلة : ٤٥٤ وغيرها .

(٤٤) ينظر - للاستزادة من هذه الأمثلة والنماذج - معاني القرآن ٣/١ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٧٦ ، ٣٥٧ ، ٤٣١ . ٢١/٢ ، ٢٨ ، ٦٧ ، ٩٠ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٣٠٦ ، ٣٦٦ ، ٤١٢ . ٣ / ٧ ، ١٢ ، ١٤ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٧٦ ، ١٩٩ ، ٢١٩ .

- في قوله تعالى: ﴿فَصْرُهُنَّ إِلَيْكَ﴾^(٤٥) قال الفراء: (ضمّ الصاد العامة)^(٤٦). وكان أصحاب عبد الله يكسرون الصاد^(٤٧) وهما لغتان . فأما الضم فكثير وأما الكسر ففي هذيل وسليم ... ويفسر معناه: قطعهن ، ويقال: وجّههن . ولم نجد قطعهن معروفة من هذين الوجهين ، ولكني أرى - والله أعلم - أنها إن كانت من ذلك أنها من صرّيت تصرّي^(٤٨) قدّمت ياءها كما قالوا: عثتُ و عثّيتُ^(٤٩) والعرب تقول: بات يصري في حوضه إذا استقى ثم قطع واستقى ، فلعله من ذلك^(٥٠) .

وهذا من قبيل المعاقبة بين صيغ الأفعال وحركاتها ، وهذه التعليقات نفسها قد تكررت عند من جاء بعد الفراء ، وربما صرح بعضهم بالنقل عنه^(٥١) وقد يزيدون عليها توجيهات قد لا تعدوا معناها العام ، أو مادتها الاشتقاقية ذات الصلة بعضها ببعض ، كما في قول الأزهري - بعد سوقه

(٤٥) البقرة : ٢٦٠

(٤٦) ينظر تفسير الطبري ٥/٥٠٤ ، والسبعة : ١٩٠ ، والتيسير : ٨٢ وفيه إلى غير حمزة ، وأضاف صاحب الكشف ١/٣١٣ إلى غير علي بن أبي طالب والحسن وأبي عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد . ونظر البحر ٢/٣٠٠ ، وحجة ابن خالويه ٧٧ .
(٤٧) نسبها في الطبري ٥/٤٩٥ إلى جماعة من أهل الكوفة ، وفي السبعة : ١٩٠ ، والتيسير ٨٢ إلى حمزة وفي الكشف ١/٣١٣ إلى حمزة وابن عباس وشيبة وعلقمة وابن جبير وأبي جعفر وقتادة وابن وثاب وطلحة والأعمش . وفي البحر ٢/٣٠٠ إلى حمزة ويزيد وخلف ورويس وفي الحجة لابن خالوية : ٧٧ بلا نسبة .

(٤٨) صرّي بمعنى قطع لغة نبطية (اللغات لابن عباس / ١٩)

(٤٩) هما لغتان الأولى عثي يعثي ، والثانية : عثا يعثو وفيها لغة ثالثة : عاث يعيث ، والأولى هي الجيدة ، لأن فَعَلَ يَقَعْل لا يكون إلا مما ثانية أو ثالثة حرف حلق . ينظر : التهذيب (عثي) ٣/١٥٠ .

(٥٠) معاني القرآن ١/١٧٤

(٥١) ينظر - مثلاً - السبعة ١٨٩ ، والقراءات وعلل النحويين فيها ١/٩٤ ، والتيسير ٨٢ ، والمبهم ٣٨٤ ، والمحتسب ١/١٣٦ .

توجيه الفراء :- (والذي عندي في معنى: صُرْهَنْ ، وصِرْهَنْ أن معناهما واحد يقال: صار يصوره ويصيره بالواو والياء: إذا أماله ، لغتان معروفتان) ^(٥٢) وهذا الاختيار من أبي منصور هو ما ذكره الفراء بحروفه .
- في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعَنَكُمْ﴾ ^(٥٣) قال: (والظعن يُثْقَلُ فِي الْقِرَاءَةِ وَيَخْفَفُ ^(٥٤) ؛ لَأَنَّ ثَانِيَةَ عَيْنٍ ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَا كَانَ ثَانِيَةَ أَحَدِ السِّتَةِ الْأَحْرَفِ ^(٥٥) مثل: الشعر والبحر والنهر) ^(٥٦) .

وهذا من قبيل الزيادة في الحركة ، وقد جاء هذا التوجيه نفسه عند كل من تصدى لها بعد الفراء بما يوحي تصريحاً أو تلميحاً استفادتهم من آرائه ^(٥٧)

- وفي قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ ^(٥٨) قال: (أكثر القراء على الناء ^(٥٩) وهي في قراءة عبدالله (سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) فهذا يقوي الذين قرعوا بالناء . ولو قرئت بالياء ^(٦٠) لكان صواباً .. وإنما حسنت الياء

(٥٢) القراءات وعلل النحويين فيها ٩٤/١ ، وانظر حجة القراءات لابن زنجلة : ١٤٥ ، والمحتسب ١٣٦/١ .

(٥٣) النحل : ٨٠

(٥٤) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابو عمر ، ويعقوب بالثقل - أي فتح العين - وقرأ الباقر بالتخفيف - أي إسكان العين - - ينظر : السبعة ٣٧٥ ، والتيسير ١٣٨ ، والمبجج ٥٨٨ .

(٥٥) يريد أحرف الحلق . وهي الهمزة ، والهاء والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء .

(٥٦) معاني القرآن ١١٢/٢ وهذا الذي ذكره هو لغتان ، والأصل الإسكان ، والفتح من أجل

حرف الحلق وهي لغة لتميم وقيس . ينظر التهذيب (ظعن) ٣٠٠/٢ .

(٥٧) ينظر - مثلاً - القراءات وعلل النحويين فيها ٣٠٨/١ ، وحجة القراءات لابن زنجلة :

٣٩٣ .

(٥٨) الإسرائ : ٤٤

(٥٩) وهي قراءة حمزة والكسائي ، وحفص وأبي عمرو والحضرمي ، ينظر : السبعة ٣٨١ ،

والتيسير ١٤٠ .

(٦٠) وهي قراءة نافع ابن كثير وابن عامر وأبي بكر وأبي جعفر ورويس . ينظر : التيسير

١٤٠ ، والمبجج ٥٩٦ .

لأنه عدد قليل ، وإذا قل العدد من المؤنث والمذكر كانت الياء فيه أحسن من البناء قال الله عز وجل في المؤنث القليل (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)^(٦١) وقال في المذكر: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم)^(٦٢) فجاء بالتذكير ، وذلك أن أول فعل المؤنث إذا قلَّ يكون بالياء ، فيقال: النسوة يقمن ، فإذا تقدم الفعل سقطت النون من آخره ، لأن الاسم ظاهر فثبت الفعل من أوله على الياء ، ومن أنت ذهب إلى أن الجمع يقع عليه (هذه) فأنت لتأنيث (هذه) والمذكر فيه كالمؤنث ..)^(٦٣) .

وهذا التوجيه قد جاء بحروفه أو قريب منه عند غير واحد من أصحاب توجيه القراءات وتعليقها^(٦٤) .

وعلى هذه الشاكلة ساق المصنف عدداً من القواعد الصرفية في توجيهاته وتعليقاته من مثل قوله: (فإذا وضعت مفعلة في معنى فاعل كفت من الجمع والتأنيث ، فكانت موحدة مفتوحة العين لا يجوز كسرهما . العرب تقول: هذا عشب ملبنة مسمنة ، والولد مبخله مجبنة ، مما ورد عليك منه فأخرجه على هذه الصورة ..)^(٦٥) .

وقوله: (والعرب تجمع ما هو على صورة خشبة أرى على فعل ، من ذلك: أجمه وأجم ، وبدنة وبذن ، وأكمة وأكم ..)^(٦٦) .

وقوله: (ما كان يفعل منه مكسوراً مثل: يذب ، ويفر ، ويصح ، فالعرب

(٦١) يوسف : ٣٠

(٦٢) التوبة : ٥

(٦٣) معاني القرآن : ١٢٤/٢ - ١٢٥

(٦٤) ينظر : علل القراءات للأزهري ٣٢٤/١ ، وحجة القراءات لابن زنجلة : ٤٠٥

(٦٥) معاني القرآن ١٢٦/٢

(٦٦) نفسه ١٥٩/٣

تقول: مَفر ومَفر ، ومَصيح ومَصَح ، ومَدب ومَدَب ..^(٦٧) وغيرها كثير^(٦٨) .

- الأصل الثالث: القاعدة الصوتية :

تناول الفراء كثيرًا من القضايا الصوتية في معانيه أملتة عليه اختلاف قراءات القراء ، وتعدّد لغات العرب في تلك القراءات ، وقد صارت كثير من تعليلاته وتوجيهاته الصوتية مرجعًا ومفادًا لمن جاء بعده كما ستظهره هذه النماذج التي نوردّها . ومن أهم القضايا التي جاءت في معانيه حين التعليل للقراءات ما يلي :

١- الإظهار والإدغام :

- في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يُخَطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾^(٦٩) يقول: (والقُراء تقرأ (يَخْطَفُ) بنصب الياء والخاء والتشديد^(٧٠) . وبعضهم ينصب الياء ، ويخفض الخاء ، ويشدد الطاء فيقول: (يَخْطَفُ)^(٧١) وبعضهم يكسر الياء

(٦٧) نفسه ٢١٠/٣ .

(٦٨) ينظر - على سبيل المثال : ٤٣ / ١ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٥٥ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢٦٠ ، ٣٢٥ ، ٣٩٤ ، ٤٣٧ ، ٤٥٩ . ٤٧ / ٢ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢٨٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٤١٩ - ٣٢ / ٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ .

(٦٩) البقرة : ٢٠ .

(٧٠) نُسبت في الشواذ ٣ إلى الأعمش ، وفي البحر ٩/١ إلى الحسن ، والحجري ، وفي الجامع مع ٢٢٢/١ إلى الحسن وحده .

(٧١) رويت عن الحسن كما في : مختصر الشواذ : ٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٦٠/١ ، والبحر ٩٠/١ في الجامع ٢٢٢/١ عن الحسن وقتادة وعاصم الحجري وأبي رجاء العطاردي .

والخاء ويُشَدَّد فيقول (يَخْطِفُ) ^(٧٢) ، وبعض من قراء أهل المدينة يُسَكِّن الخاء والطاء فيجمع بين ساكنين فيقول: (يَخْطِفُ) ^(٧٣) .

هكذا أورد الفراء هذه القراءات بالتفصيل ، ثم شرع ببيان توجيهاتها فقال: (فأما من قال: (يَخْطِفُ) فإنه نقل إعراب التاء المدغمة إلى الخاء إذ كانت منجزمة ، وأما من كسر الخاء فإنه طلب كسرة الألف التي في اختطف والاختطاف ، وقد قال فيه بعض النحويين: إنما كسرت الخاء لأنها سكنت ، وأسكنت التاء بعدها ، فالتقى ساكنان ، فخفضت الأول ، وليس الذي قالوا بشيء؛ لأن ذلك لو كان كما قالوا لقاتل العرب في يَمْدُ: يَمِدْ ، لأن الميم كانت ساكنة وسكنت الأولى في الدالين . ولقالوا في يَعَضُ: يَعِضْ .

وأما من خفض الياء والخاء فإنه: أيضا من طلبه كسرة الألف ؛ لأنها كانت في ابتداء الحرف مكسورة.

وأما من جمع بين الساكنين فإنه كمن بنى على البيان ، إلا أنه إدغام خفي) ^(٧٤) .

ولنأخذ نموذجا واحدا ممن جاء بعد الفراء من أصحاب كتب التوجيه والتعليل للقراءات الذين نقلوا عن الفراء هذه التعليقات ، وصرحوا بذلك ، وهو الإمام الأزهرى في كتابه (علل القراءات) حيث يقول: (روي عن الحسن أنه قرأ: (يَخْطِفُ) بكسر الخاء والطاء . ومن العرب من يقول:

(٧٢) نسبت في الشواذ ٣ إلى الأعمش ، وفي المحتسب ٥٩ بلا نسبة ، والجامع ٢٢/١ كذلك ، وفي البحر ٩٠/١ إلى الحسن والأعمش .

(٧٣) معاني القرآن ١٧/١

(٧٤) معاني القرآن ١٧/١ - ١٨ ، وانظر في هذه العلل : معاني القرآن للأخفش ٢٠٩/١ - ٢١٠ والبحر ٩٠/١ ، وحجة الفارسي ٢٩٤ ، والصحاح " خطف " واللسان " خطب " ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٦٠/١ ، والمحتسب : ٥٩ .

(يَخْطَفُ) بفتح الياء والخاء وكسر الطاء . ومنهم من يقول (يَخْطِفُ) بكسر الياء والخاء والطاء ، وأجودها (يَخْطَفُ) وبعده (يَخْطِفُ) .
فمن قال: يَخْطَفُ ، فالأصل يَخْتَطِفُ ، فأدغمت التاء في الطاء ، وألقيت على الخاء فتحة التاء .

ومن قال: يَخْطَفُ ، كسر الخاء لسكونها وسكون الطاء ، وهذا قول الخليل . وزعم الفراء أن الكسر لالتقاء الساكنين هاهنا خطأ وأنه يلزم من قال هذا أن يقول في (يَعَضُّ) يَعْضُ ، وفي (يَمْدُ) يَمِدُّ .^(٧٥)
والمقارنة بين هذين النصين ، وتصريح الأزهري برأي الفراء ، يظهر مدى التأثير بآراء الفراء ، والبناء عليها من قبل مَنْ تصدى لهذا الفن .
وعلى هذا النوع ساق الفراء عددًا من الأمثلة والشواهد من مثل قوله: (والقُرَاء بعدُ يقرءون (حتى يَطْهَرْنَ) و ﴿يَطْهَرْنَ﴾^(٧٦) (يَطْهَرْنَ): ينقطع عنهن الدم ، ويتطهرن: يغتسلن بالماء ، وهو أحب الوجهين إلينا: (يَطْهَرْنَ)^(٧٧) .

وغير ذلك من الأمثلة^(٧٨)

٢- الهمزة:

تتصرف العرب في الهمزة مالا تتصرف في غيرها لتقلها وبعد مخرجها، فتخففها إمّا بجعلها بين بين ، وإما بالبدل ، وإما بالحذف^(٧٩) .

(٧٥) علل القراءات ٤٢/١ ، وانظر المحتسب ٥٩/١ حيث صرح بالنقل عن الفراء بالموافقة والاستفادة .

(٧٦) البقرة : ٢٢٢ قرأ عاصم في رواية ابن عياش ، وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء ، وقرأ الباقون بالتخفيف . ينظر : السبعة : ١٨٢ ، والتيسير : ٨٠ ، والمبهم : ٣٧٥

(٧٧) معاني القرآن للفراء ١٤٣/١ ، وانظر علل القراءات ٧٩/١ .

(٧٨) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ٩٥/١ ، ٢١٥ ، ٢٥٣ ، ٢٧٩ ، ٤١١ ، ٤٤١ ، ١١٢/٢ ، ٢٦٧ ، ٣٥٣ ، ١٣٥/٣ .

وكانت القراءات القرآنية صورة معبرة عن لغات العرب فيها بين التحقيق والتخفيف فيما نقله الفراء في معانيه ، وتناقله من جاء بعده عنه أو عن غيره من أئمة اللغة المتقدمين الذين أصلوا لهذا الجانب ، وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

- في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾^(٨٠) قال: (قد ذكر عن الحسن أنه قال: (ولا أدراكم به)^(٨١) فإن يكن فيها لغة سوى دريت وأدريت فلعل الحسن ذهب إليها . وأما أن تصلح من دريت أو أدريت فلا ، لأن الياء والواو إذا انفتحت ما قبلهما وسكنتا صحتا ولم تتقلبا إلى ألف ، مثل قضيت ودعوت . ولعل الحسن ذهب إلى طبيعته وفصاحته فهمزها ؛ لأنها تضارع درأت الحدّ وشبهه ، وربما غلطت العرب في الحرف إذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غير المهموز ، سمعت امرأة من طيء تقول: رثأت زوجي بأبيات . ويقولون: لبأت بالحج ، وحلأت السوق فيغلطون ؛ لأن حلأت قد يقال في دفع العطاش من الإبل ، ولبأت ذهب إلى اللبأ الذي يؤكل ، ورثأت زوجي ذهبت إلى رثئة اللبن ، وذلك إذا حلبت الحليب على الرائب)^(٨٢) .

وهذا التوجيه من الفراء يوحى باختلاف أصل كل من المادتين ، وعليه اختلاف المعنى ، والحامل عليه التضارع والتشابه ؛ فتحمل العرب غير المهموز على المهموز فتهمزه ، ولذلك رأيناه وجّه بالمعنى: فأدراكم بغير

(٧٩) ينظر : الكتاب ٥٤٨/٣ ، التهذيب ٦٨٤/١٥ ، اللسان ١٧/١ .

(٨٠) يونس : ١٦

(٨١) ينظر : مختصر الشواذ : ٥٦ ، والبحر ١٣٢/٥ ، والمحتسب : ٣٠٩/١ وفيها نسبت مع

الحسن إلى ابن عباس وابن سيرين ، وأي رجاء .

(٨٢) معاني القرآن ٤٥٩/١ ، وانظر : المحتسب ٣٠٩/١ ، واللسان ١٧/١ ت.

همز من دريت وأدريت ، وأدراؤتكم بالهمز من درأ ، فالمضارعة في الحروف والحركات كماترى ، ومع جعل الفراء ذلك من أصلين مختلفين إلا أنه حرص على وحدة المعنى في القراءات القرآنية ، وعدم التفرقة بين وجوه هذه القراءات . ومع كل ذلك فهمز ما لا يهمز يعدّ عن الفراء وغيره من اللغويين شاذاً وإن اشتهر السماع فيه^(٨٣)

- وكذلك في (برية) من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٨٤) حيث قال: (البرية غير مهموز ، إلا أن بعض أهل الحجاز همزها ، كأنه أخذها من قول الله جلّ وعزّ ، برأكم ، وبرأ الخلق ، ومن لم يهمزها فقد تكون من هذا المعنى .. وإن أخذت من البرى كانت غير مهموزة)^(٨٥)

فالفراء يفرّق بين برية وبريئة من حيث الإبدال والإدغام ، وهذا مما أصله الهمز ، وتركت العرب الهمز فيه كما قال ابن السكيت^(٨٦) فجعل من التغيير الصوتي تغييراً دلاليّاً مع أنّ العلة صوتية بحتة ، وهكذا يكون التعليل في نحوها من الأمثلة على الهمز^(٨٧) .

٣- الإبدال :

فقد تناول الفراء ظاهرة الإبدال من خلال تعليله جملة من القراءات تعليلاً صوتيّاً ، كانت بمثابة اللبّات الأولى لتأسيس قواعد هذه الظاهرة لدى علماء اللغة والقراءات الذين جاءوا بعده ومن الأمثلة على ذلك :

(٨٣) ينظر : إصلاح المنطق : ١٥٧ ، واللسان باب الهمز : ١٧/١ ، والخصائص ١٤٢/٣ ، والمحتسب ٣٠٩/١ .

(٨٤) البينة : ٧ .

(٨٥) معاني القرآن ٢٨٢/٣ ، وانظر : حجة القراءات لابن زنجلة : ٧٦٩ .

(٨٦) إصلاح المنطق : ١٥٩ .

(٨٧) ينظر - مثلاً - ٤٢/١ ، ٦٥ ، ١٢٤ ، ٤٥٩ ، ١١/٢ ، ١٧١ ، ٢١٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥ .

- تعليله لهذه الظاهرة باختلاف لهجات ولغات العرب في (فومها) من قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا﴾^(٨٨) حيث قال: (فإن الفوم فيما ذكر لغة قديمة.. قال بعضهم: سمعنا بعض العرب من أهل هذه اللغة يقولون: فوموا لنا - بالتشديد - وهي قراءة عبد الله (وثومها)^(٨٩) بالثاء ، فكأنه أشبه المعنيين بالصواب؛ لأنه مع ما يشاكله من العدس والبصل وشبهه ، والعرب تبدل الفاء بالثاء فيقولون: جَدَثَ وجَدَفَ ، ووقعوا في عاثور شرٌّ وعافور شرٌّ ، والأثافي والأثافي، وسمعت كثيراً من بني أسد يسمي المغافير: المغاثير)^(٩٠) .

- ومما علّل له بالتعليل الصوتي إضافة إلى كونه من اختلاف اللهجات قوله في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَذَخَّرُونَ﴾^(٩١) هي تفتعلون من ذخرت ، وتقرأ: (وما تَذَخَّرُونَ)^(٩٢) خفيفة على تفتعلون ، وبعض العرب يقول: تَذَخَّرُونَ ، فيجعل الدال والذال يعتقبان في تفتعلون من ذخرت ، وظلمت تقول: مظلم ومظلم ، ومذكر ومذكر ، وسمعت بعض بني أسد يقول: قد اتَّغَرَّ ، وهذه اللغة كثيرة فيها خاصة. وغيرهم قد اتَّغَرَّ .

فأما الذين يقولون: يَذْخَر ويذكر ومذكر فإنهم وجدوا التاء إذا سكنت واستقبلتها ذال دخلت التاء في الذال فصارت ذالاً ، فكروا أن تصير التاء ذالاً فلا يُعرف الافتعال من ذلك ، فنظروا إلى حرف يكون عدلاً بينهما في المقاربة ، فجعلوه مكان التاء ومكان الذال .

(٨٨) البقرة : ٦١.

(٨٩) وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس كما في المحتسب ٨٨/١ .

(٩٠) معاني القرآن ٤١/١ ت، وانظر : المحتسب ٨٨/١ .

(٩١) آل عمران : ٤٩.

(٩٢) وهي قراءة الزهري ومجاهد وأبي أيوب السخيتاني .

وأما الذين غلبوا الذال فأمضوا القياس ، ولم يلتفتوا إلى أنه حرف واحد ، فادغموا تاء الافتعال عند الذال والتاء والطاء .

ولا تتكرن اختيارهم الحرف بين الحرفين ؛ فقد قالوا: ازجر ومعناها: ازتجر ، فجعلوا الدال عدلاً بين التاء والزاي ، ولقد قال بعضهم: مَزْجَر ، فغلب الزاي كما غلب التاء ، وسمعت بعض بني عُقيل يقول: عليك بأبوال الظباء فاصَّعْطُهَا فإنها شفاء للطحل فغلب الصاد على التاء ، وتاء الافتعال تصير مع الصاد والضاد طاءً .. (٩٣) .

وهذا الإسهاب من الفراء في هذا المثال جمع فيه تعليلين: التعليل بالإبدال ، والتعليل بالإدغام الذي هو من خصائص بعض اللهجات ، لا سيما البدوية منها ، وأشار إلى ما يحدث بينهما من مرحلة وسط وهي ما يسميها بالعدل بين الصوتين المتبادلين ثم المدغمين ، لهدف التقريب (٩٤) ..

وهذا التعليل والعزو لقبائل هذه الظاهرة من الفراء صار معنياً صدر عنه من جاء بعد الفراء في تعليل هذه القراءات أو الظاهرة اللغوية المتصلة بها (٩٥) وأمثلة أخرى - كذلك - مثلها (٩٦) .

وعلى هذه الشاكلة كان تعليله ناضجاً في سائر قضايا الأصوات غير ما ذكرنا ، كالإتباع (٩٧) ، والقطع والوصل (٩٨) ، والتثقيب

(٩٣) معاني القرآن : ٢١٥/١ - ٢١٦

(٩٤) ينظر : للسان (نغر) ١٠٤/٤ ، الكتاب ٤٤٥/٤ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٩٥) ينظر : في اللهجات العربية ص ١٠٠ ، للتطور النحوي للغة العربية ص ٣١ ، اللهجات في الكتاب لسبوية ص ٢١٢ .

(٩٦) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ٤١/١ ، ١٧٣ ، ٢١٥ ، ٤٨٠ ، ٤٢/٢ ، ٢٠١ ، ٣١٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ .

(٩٧) معاني القرآن ٥/١ .

(٩٨) نفسه ٩/١

والتخفيف^(٩٩) ، والحذف^(١٠٠) والقلب^(١٠١) والمد والقصر^(١٠٢) ولولا خشية الإطالة لمثلنا لكل ذلك ، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق .

- الأصل الرابع: الدلالة

يؤدي الخلاف بين القراءات في بعض المواضع إلى نوع من الخلاف في المعنى ، وإن تفاصيل كثيرة من الاعتبارات المتفاوتة تتدخل في موقف المحتج للقراءة ، من ذلك التباين في الأفهام ، كما أن الخلفية الثقافية ، والتمكن اللغوي يتركان أثراً واضحاً في ذلك الموقف . والاعتماد على المعنى في تقديم قراءة على أخرى قديم جداً ، يعود إلى الصدر الأول ، وإن كنا نرى أن أثر الخلاف في المعنى في قبول القراءة أو ردها كان ضئيلاً ؛ بدليل أن علماء القراءات وأهل التعليل لها جعلوا شروط القراءة المقبولة ثلاثة ، وهي: صحة السند ، وموافقة رسم المصحف وموافقة وجه من وجوه العربية ، ولم يشترطوا بالنسبة للمعنى شيئاً . وهذا كان للدلالة على أن الخلاف في المعنى لم يعد يُشكّل عقبة أمام موجّهي القراءات .

وإذا نظرنا في اعتماد القراء على المعنى وجدناه يقبل - على وجه التقريب - كلّ القراءات التي تكلم فيها غيره لتأديتها معنى ربما لا ينسجم مع روحها العام ، أو نصّ من النصوص ، وفي القليل النادر اتكأ على المعنى لتقديم قراءة سبعية على أخرى ، أما أن يطعن في قراءة من أجل المعنى ، فهذا قد يكون نادراً . فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

(٩٩) نفسه ١٧/١ ، ٢١٢ ، ٣٣١ ، ٣٩١ ، ١٦/٢ ، ١١٣ ، ٨/٣ ، ١٤٣ ، ٢٤٥ .

(١٠٠) نفسه ٢٧/٢ ، ١٢٥ .

(١٠١) نفسه ١٢٤/٢ ، ٣٩٤ .

(١٠٢) نفسه ٣٣٧/٢ .

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(١٠٣) أن عائشة - رضي الله عنها - قرأت أو قالت: (ما كنا نقرأ إلا (يأتون ما أتوا)^(١٠٤) وكانوا أعلم بالله من أن توجل قلوبهم .

قال الفراء: تعني به الزكاة ، تقول: كانوا أتقى الله من أن يؤثروا زكاتهم وقلوبهم وجلة^(١٠٥) .

وكان أم المؤمنين - رضي الله عنها - تستكر قراءة الجمهور ؛ لأن المؤمنين لا يؤدون زكاة أموالهم إلا وهم مطمئنون إلى مثوبة الله وتعويضه، مع أن المعنى على قراءة الجمهور واضح ، وهم أنهم يؤدون الفرائض وهم يخافون ألا يُقبل منهم .

والعجيب أن هذا المعنى مروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث ذكر الترمذي أن عائشة سألت رسول الله عن هذه الآية ، قالت: أهم الذين يشربون الخمر ، ويسرقون ؟ قال: لا ، يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يُقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات^(١٠٦) ؛

أ - في شرح مفردات غريب القرآن :

نال غريب القرآن عناية الفراء في معانيه ، وقد تجلت هذه العناية فيما يأتي :

١ - بيان المعنى المجبي وربطه بالمعنى السياقي .

(١٠٣) المؤمنون : ٦٠

(١٠٤) وهي قراءة عائشة ، وابن عباس ، وقتادة ، والأعمش ، ينظر : المحتسب ٩٥/٢

(١٠٥) معاني القرآن ٢٣٨/٢ ، وانظر المحتسب ٩٥/٢

(١٠٦) الجامع لأحكام القرآن ١٣٢/١٢ .

قال في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾^(١٠٧) (الأماني على وجهين في المعنى ، ووجهين في العربية ؛ فأما في العربية: فإن من العرب من يخفف الياء فيقول: (إلا أمانى وإن هم)^(١٠٨) ومنهم من يشدد ، وهو أجود الوجهين. وكذلك ما كان مثل: أمنيّة ، ومثل أضحية وأغنيّة ، ففي جمعه وجهان: التخفيف والتشديد ، وإنما تشدد لأنك تريد الأفاعيل ، فتكون مشددة ؛ لاجتماع الياء من جمع الفعل والياء الأصلية ، وإن خففت حذف ياء الجمع فخففت الياء الأصلية ، وهو كما يقال: القراقرير والقراقر ، فمن قال: الأماني بالتخفيف ، فهو الذي يقول: القراقر ، ومن يشدد الأماني فهو الذي يقول: القراقرير .

والأمنيّة في المعنى: التلاوة ... والأماني أيضا أن يفتعل الرجل الأحاديث المفتعلة ، قال بعض العرب لابن دأب ، وهو يحدث الناس: أهذا شيء رويته أم تمنيتّه ؟ يريد افتعلته ، وكانت أحاديث يسمعونها من كبارهم ليست من كتاب الله. وهذا أبين الوجهين)^(١٠٩) .

- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١١٠) قال: (فتَّبَيَّنُوا) قراءة عبدالله بن مسعود وأصحابه^(١١١) ،

(١٠٧) البقرة : ٧٨

(١٠٨) وهي رواية هارون عن أبي عمرو (مختصر الشواذ : ٧ ، والمحتسب ٩٤/١ ، وقد خطأها الطبري في تفسيره ٢٩٨/١ .

(١٠٩) معاني القرآن ٤٩/١ - ٥٠ ، وينظر - فيمن أفاد منه - علل القراءات للزهرى ٥١/١ ، والمحتسب ٩٤-٩٥ .

(١١٠) النساء : ٩٤

(١١١) قرأ حمزة والكسائي بالثاء ، وقرأ الباقر بالباء ، ينظر : السبعة : ٢٣٦ ، والتيسير : ٧ ، والمبج : ٤٣٢

وكذلك التي في الحجرات وهما متقاربان في المعنى . تقول للرجل: لا تعجل بإقامة حتى تتبين وتتثبت (١١٢) .

وقد ورد هذا التعليل بحروفه أو يكاد عند غير واحد من أهل الاحتجاج للقراءات ، مما يؤكد أثر الفراء ومعانيه على من جاء بعده (١١٣) .

٢- التنبيه على التوسع الدلالي في المفردة :

- قال في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضِيقًا حَرَجًا﴾ (١١٤): (قرأها ابن عباس وعمر (حرجا) . وقرأها الناس: حَرَجًا (١١٥) . والخرج - فيما فسّر ابن عباس - الموضع الكثير الشجر الذي لا تصل إليه الراعية . قال: فكذلك صدر الكافر لا تصل إليه الحكمة . وهو في كسره وفتحه بمنزلة: الواحد والوحد ، والفرد والفرد ، والدنف والدنف: نقوله العرب في معنى واحد (١١٦) . ولم نر أحدا ممن جاء بعد الفراء زاد على ذلك ، بل ربما نقلوه بحروفه (١١٧) .

- وقال في قوله تعالى: ﴿مَالِهَا مِنْ فُوقٍ﴾ (١١٨): (من راحة ولا إفاقة وأصله من الإفاقة في الرضّاع إذا ارتضعت البهمة أمّها ثم تركتها حتى تنزل شيئا من اللبن ، فتلك الإفاقة والفُوق بغير همز . وجاء عن النبي

(١١٢) معاني القرآن ٢٨٣/١

(١١٣) ينظر - مثلاً - علل القراءات للأزهري ١٥٢/١ ، حجة القراءات لابن زنجلة : ٢٠٩ .

(١١٤) الأنعام : ١٢٥

(١١٥) قرأ نافع وأبو بكر وأبو جعفر بالكسر ، وقرأ الباقر بالفتح ، ينظر : السبعة : ٢٦٨ ، والتيسير : ١٠٦ ، والمبهمج : ٤٧٤ .

(١١٦) معاني القرآن ٣٥٣/١ ، ٣٥٤ .

(١١٧) ينظر - مثلاً - معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٨/٢ ، ٣١٩ ، وعلل القراءات للأزهري ٢٠١/١ ، ٢٠٢ ، وحجة القراءات لابن زنجلة : ٢٧١ .

(١١٨) ص : ١٥ .

صلى الله عليه وسلم أنه قال: (العبادة قدر فُواق ناقة) ^(١١٩) وقرأها الحسنُ وأهل المدينة وعاصم بن أبي النجود: (فُواق) بالفتح ^(١٢٠) وهي لغة جيّدة عالية ^(١٢١) ، وضَمَ حمزة ويحيى والأعمش والكسائي ^(١٢٢) .
وقد نقل هذا التعليل غير واحد ممن جاء بعد ذلك ^(١٢٣) .

٣- التنبيه على الأضداء :

- قال في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ^(١٢٤) قال بعض المفسرين: معنى ترجون: تخافون ، ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء إلا ومعه جحد . فإذا كان كذلك كان الخوف على جهة الرجاء والخوف ، وكان الرجاء كذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ ^(١٢٥) : هذه: للذين لا يخافون أيام الله ، وكذلك في قوله: ﴿مَالِكُمْ لَا تَرَجُونَ اللَّهَ وَقَارًا﴾ ^(١٢٦) : لا تخافون لله عظمة وهي لغة حجازية ^(١٢٧) .

- وقال في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ ^(١٢٨) (قرأت القراء بالضم ، وفي

(١١٩) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٦٨/٣ .

(١٢٠) ينظر في القراءتين : السبعة : ٥٥٢ ، التيسير ١٨٧ / ٧٥٧ .

(١٢١) الضم لغة تميم وأسد وقيس ، والفتح لغة الحجاز . ينظر : الإتحاف ٣٧٢ .

(١٢٢) معاني القرآن : ٤٠٠/٢

(١٢٣) ينظر - مثلاً - معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٢٣/٤ ، وعلل القراءات للأزهري ٥٨٣/٢ ، والتهذيب (فوق) ٣٣٧/٣ ، وحجة القراءات لابن زنجلة : ٦١٣ فقد نص على رأي الفراء .

(١٢٤) النساء : ١٠٤

(١٢٥) الجاثية : ١٤

(١٢٦) نوح : ١٣

(١٢٧) معاني القرآن ٢٨٦/١

(١٢٨) طه : ١٥

قراءة أبيّ (إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها)^(١٢٩)، وقرأ سعيد بن جبير (أخفيها) بفتح الألف من خفيت^(١٣٠) وخفيت: أظهرت ، وخفيت سترت^(١٣١) .

٤- إيضاح الأعجمي وبيان دلالاته وأصله :

- قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١٣٢): (ذكر أنه نبيّ، وأن هذا الاسم اسم من أسماء العبرانية ، كقولهم: إسماعيل وإسحاق والألف واللام منه ، ولو جعلته عربياً من الأليس^(١٣٣) ، فتجعله: إفعالاً مثل الإخراج والإدخال لجرى .

ثم قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ﴾^(١٣٤) فجعله بالنون ، والعجمي من الأسماء قد يفعل به هذا العرب . تقول: ميكال ، وميكائيل ، وميكائل ، وميكائين بالنون ، وهي في بني أسد يقولون: هذا إسماعين قد جاء ، بالنون، وسائر العرب باللام . فهذا وجه لقوله: إلياسين . وإن شئت ذهبت بإلياسين إلى أن تجعله جمعاً ؛ فتجعل: أصحابه داخلين في اسمه ، كما تقول للقوم رئيسهم المهلب: قد جاءتكم المهالبة والمهلبون^(١٣٥) .

ب- في بيان الفروق اللغوية :

(١٢٩) المحتسب ٤٧/٢

(١٣٠) المحتسب ٤٧/٢ ورويت كذلك عن الحسن ومجاهد .

(١٣١) معاني القرآن ١٧٦/٢ ، وانظر في العلل نفسها المحتسب ٤٧/٢-٤٨

(١٣٢) الصافات : ١٢٣ .

(١٣٣) الأليس : الذي لا يبرح بيته ، ويقال : الشجاع ، ينظر : اللسان (أ ل س) .

(١٣٤) الصافات : ١٣٠

(١٣٥) معاني القرآن ٣٩١/٢ ، وانظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٢/٤ ، وعلل

القراءات للزهرى ٥٧٩/٢-٥٨٠ كيف أفادا من معاني الفراء وتأثرا به وكذا ابن جني في

المحتسب ٢٢٣/٢ ، ونقل ابن زنجلة في حجة : ٦١١ هذا عن الفراء بنصه .

وهذا النوع في تعليل القراءات في معانيه كثير ، وأكثر منه نقل غير واحد ممن جاء بعده عنه ذلك نصاً ، ومن الأمثلة على ذلك :

- القَرْح والقَرْح ، من قول تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ (١٣٦) .

قال: (وقَرْح وأكثر القراء على فتح القاف ، وقد قرأ أصحاب عبدالله: قَرْح^(١٣٧) وكأنَّ القَرْح ألم الجراحات ، وكأنَّ القَرْح الجراح بأعيانها)^(١٣٨) .

وقد أورد الأزهري رأي الفراء هذا بالنص عليه دونما تغيير . (١٣٩) بل رجَّح ابن زنجلة قول الفراء بعد عرضه آراء غيره (١٤٠) .

- الشَّقَّ ، والشَّقَّ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ﴾ (١٤١) يقول: (أكثر القراء على كسر الشين ومعناها: إلا بجهد الأنفس . وكأنه اسم . وكأن الشَّقَّ فعل ، كما توهم أن الكَره الاسم ، وأن الكَره الفعل ، وقد قرأ به بعضهم^(١٤٢) (إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ) وقد يجوز في قوله: (بشَقِّ الأنفس) أن تذهب إلى أن الجَهد ينقص من قوَّة الرجل ونفسه حتى يجعله قد ذهب بالنصف من قوَّته ، فتكون الكسرة على أنه كالنصف. والعرب تقول: خذ هذا الشَّقَّ لشَقَّة

(١٣٦) آل عمران : ١٤٠

(١٣٧) قرأ أبو بكر ، وحمزة والكسائي بضم القاف ، وقرأ الباقون بفتحها . ينظر : السبعة :

٢١٦ والتيسير : ٩٠ ، والمبہج : ٤٠٧ .

(١٣٨) معاني القرآن ٢٣٤/١

(١٣٩) علل القراءات ١٢٦/١ ، وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٨٣/١ والمحتسب ١٦٦/١ .

(١٤٠) حجة القراءات : ١٧٤

(١٤١) النحل : ٧

(١٤٢) وهو أبو جعفر كما في الإتحاف ، وقد وافقه اليزيدي راوي أبي عمرو ، وخالف في هذا أبو عمرو . ينظر : المحتسب ٧/٢ ، والبحر ٤٧٦/٥ .

الشاة ، ويقال: المال بيني وبينك شَقَّ الشعرة وشَقَّ الشعرة ، وهما متقاربان) (١٤٣) .

- الضَيِّق ، والضَيِّقُ من قوله تعالى: ﴿لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٤٤) قال: (فالضَيِّقُ ما ضاق عنه صدرك ، والضَيِّقُ ما يكون في الذي يتسع ، مثل: الدار والثوب وأشباه ذلك ، وإذا رأيت الضَيِّقَ وقع موقع الضَيِّقِ كان على وجهين: أحدهما: أن يكون جمعًا واحدة ضَيِّقَةً . والوجه الآخر: أن يراد به شيء ضَيِّق فيكون مخفَّفًا ، وأصله التشديد ، مثل: هَيْنَ ، ولَيْنَ تريد: هَيْنَ ، ولَيْنَ) (١٤٥) .

- مَيِّت ، ومائت من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (١٤٦) قال: (تقرأ: (لميتون) و(لمائتون) (١٤٧) وميتون أكثر ، والعرب تقول لمن لم يمت: إنك مَيِّتٌ عن قليل ومائت ، ولا يقولون للميت الذي قد مات: هذا مائت ، إنما يقال في الاستقبال ، ولا يجاوز به الاستقبال .

وكذلك يقال: هذا سيِّدُ قومه اليوم ، فإذا أخبرت أنه يكون سيِّدهم عن قليل قلت: هذا سائد قومه عن قليل وسيِّد ، وكذلك الطمع ، تقول: هو طامع فيما قبلك غذا ، فإذا وصفته بالطمع قلت: هو طَمِعَ ، وكذلك الشريف تقول: إنه

(١٤٣) معاني القرآن ٩٧/٢ ، وانظر : البحر ٤٧٦/٥ ، واللسان (شقق) .

(١٤٤) النحل ١٢٧ وقد قرأ ابن كثير وحده - بالكسر - وقرأ الباقيون بالفتح . ينظر : السبعة ٣٧٦ ، والتيسير : ١٣٩ ، والمبهج : ٥٩٠ .

(١٤٥) معاني القرآن ١١٥/٢ ، وينظر فيمن أفاد منه ونقل عنه : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٢٤/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢٢٤/٣ ، وإصلاح المنطق : ٣٢ ، وعلل القراءات للأزهري ٣١٠-٣١١ ، والتهذيب (ضيق) ٢١٧/٩ ، ٢١٨ ، وحجة القراءات لابن زنجلة : ٣٩٥-٣٩٦

(١٤٦) المؤمنون : ١٥ .

(١٤٧) وهي قراءة زيد بن علي ، وابن أبي عبلة ، وابن محيص كما في البحر ٣٩٩/٦ .

لشريف قومه ، وهو شارف عن قليل ، وهذا الباب كله في العربية على ما وصفت لك (١٤٨).

ومن تلك الأمثلة وغيرها تتجسد مكانة الفراء في تلك العبقريّة الكوفيّة ، والنسيج اللغوي الذي لا مثيل له ، الذي قيل فيه: لولا الفراء لما كانت العربية ؛ لأنه خلّصها وضبطها ، شاهده أبو العباس ثعلب فيه ، أدرك سرّ الحركة في الكلمة ، ودورها في المعنى ، فأراد أن يُفرّق بين تلك الوجوه التي اجتمعت لديه من لغات العرب في اللغة الموحدة ، وذلك بأن يدرك أثر الحركة في النظم فيستنبط لها معاني جديدة داخل الأصل اللغوي فيها ، أعانه على ذلك عقلية مبتكرة ، وإدراك لشيء من أسرار الواضع لها سبحانه ، إلى جانب مادة لغوية غزيرة .

إلا أنه رغم هذا الإكبار لهذه الشخصية ، وتلك الغزارة العلميّة ، والدقّة الاستنباطية ، وهذا الإعجاب بتلك الفروق ؛ فإنه من المحال الجزم بحقيقتها اللغوية في ظلّ القراءات القرآنية ، ومخالفة كثير من البصريين ؛ كالمبرّد ، والزجاج ، والأزهري الذين ينظرون لمثلها نظرة شمولية من حيث الفروق النطقية التي جاءت للتيسير على الأمة في وجوها في مجال القراءات ، وأنها تمثّل تنوع لغات العرب في القرآن التي هي من الأحرف السبعة التي يسرّ الله بها على عباده ؛ لكن تبقى حقيقة التفاريق التي صهرت تلك اللغات ، وأخرجت منها عصارة لغوية دقيقة لا يدركها إلا أمثال الفراء ، تقوم على إلغاء اللغات ، وسكب اللغة مع اتساعها في قوالب دقيقة .

فمذهب الفراء - في نظري - فيه دقيق فاصل ، ليس فيه ابتداع ، بل هو رهين واقع لغوي استقرأه الفراء نتيجة لتغيّر الدلالة ، الذي يصيب معنى

الكلمة في بيئة دون أخرى ، فقد تتعدد الصيغ على أنها لغات ، وقد تتعدد عند قبيلة أخرى على أنها معان .

لاشك أن رأي الجمهور من البصريين يعدّ حقيقة لغوية في وجوه القراءات لا يمكن تغافلها، أو التقليل من قيمتها ، وأن رأي الفراء فرق لا يعجز القرآن عن مثله ، وهو المعجز في نظمه ومعانيه. وحتى نوفّق بين المذهبين ، فلا بد من الوقوف على الأصل اللغوي ، ورأي الفراء ربما دخل تحت مسمى الفروق البلاغية التي يحتكم فيها إلى السياق حتى يمكن قبولها في ظل القراءات ؛ فلا تصطدم الحقيقتان ؛ بل تتفقان في خدمة النصّ القرآني وإدراك إعجازه .

وبعد ؛ فهذه هي الأصول اللغوية التي اتكأ عليها الفراء في تعليقه واحتجاجه للقراءات القرآنية على اختلاف درجاتها ، وهي التي قام عليها هذا البحث ، على أن هناك أصولاً أخرى لا تقل أهمية عن تلك الأصول ، أقام عليها الفراء كثيراً من تعليقاته واحتجاجاته إلا أنها ليست من الأصول اللغوية مباشرة ؛ وإنما قد يكون لها بتلك الأصول صلة ليست مباشرة، وقد لا يكون لها ذلك ، وإنما تكون إلى التفسير ، أو الفقه أو السند أقرب ؛ كاعتماده - مثلاً - على ما جاء في التفسير^(١٤٩) ، أو الانسجام بين كلمات الآية الواحدة^(١٥٠) ، أو الاعتماد على رسم المصحف^(١٥١) أو الاحتجاج بقراءات الصحابة^(١٥٢) ، أو اتباع الرواية والآثار^(١٥٣) أو الترجيح على أساس الحكم الفقهي^(١٥٤) .

(١٤٩) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ٢/٢٩٩ ، ٣٤٩

(١٥٠) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ١/١٤١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٦٠/٣

(١٥١) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ٢/١٨٣ في قراءات (إن هذان لساحران) طه : ٨٣ ، و

٢١٤/٣ في قراءات (سلاسل وأغلا) الإنسان : ٤ ، وانظر ١/٢٠٢

(١٥٢) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ١/١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ١٥٦

(١٥٣) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ١/١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٥٦/٣

(١٥٤) ينظر - مثلاً - معاني القرآن ١/١٤٣ ، ٣٠٢

وعند النظر في الأصول التي اعتمدها كتب التوجيه والاحتجاج والاعتلال التي جاءت بعد الفراء ، نجد أنها متقاربة جدًا ، ولا تكاد تعدو ما جاء في معاني القرآن للفراء أو كتب من عاصره أو سابقة ، إلا أنها في كتاب الفراء أوضح ، وأعمق ، وأدق ، وإن تفاوتت نسبة الاعتماد على كل أصل من تلك الأصول من مصنف إلى آخر - كما أسلفنا - .

ويدل على تلك المكانة والعمق لهذه الآراء التي اعتمدها من جاء بعده اختياراته حين يعرج على تلك الأصول في تعليقه للقراءات التي تنم عن تلك العقلية الفذة ، والعبقرية الساطعة ، وإليك هذا المبحث الذي يوضح ذلك :

- اختياراته وترجيحاته :

كان لاختيارات الفراء ، وترجيحاته بين تلك القراءات بناءً على ما أسسه من قواعد وأصول سلف بيان شيء منها ، كان له الأثر الجلي على آراء أصحاب الاحتجاج ومواقفهم ، فهي - في الغالب - المعين الأول الذي يصدر عنهم ، كما يدل على ذلك تردد اسم الفراء وآرائه في ثنايا كتبهم ، وبين سطورها ، ترددًا يوحى بإكبارهم لهذه الشخصية وآرائها .

فالفراء حين يحكي قراءة ما فإنه يأتي - غالبًا - بما يحتج به لكل قراءة على حدة ، ثم يرجح بعض هذه القراءات على غيرها بقوله : (وهو أجود الوجهين)^(١٥٥) أو : (وإنه لأحب الوجهين إلي)^(١٥٦) أو : (اخترنا الرفع)^(١٥٧) أو : (ولست أستهي ذلك)^(١٥٨) ، ونحوها من العبارات التي تدل على

(١٥٥) معاني القرآن : ٤٩/١

(١٥٦) نفسه ٧٥/١

(١٥٧) نفسه ١٠٤/١

(١٥٨) نفسه ١٢٥/١

الترجيح والاختيار وربما مناقشة القراء ، واللغويين في ذلك كما ستظهره
الأمثلة الآتية :

- في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾^(١٥٩)
يقول: (فالأماني على وجهين في المعنى ، ووجهين في العربية ، فإن من
العرب من يخفف الياء فيقول: (إلا أمانى وإن هم) ومنهم من يشدد^(١٦٠) وهو
أجود الوجهين .. وإنما تشدد لأنك تريد الأفاعيل ، فتكون مشددة لاجتماع
الياء من جمع الفعل والياء الأصلية ، وإن خففت حذف ياء الجمع فخففت
الياء الأصلية ..^(١٦١) .

وقد صار هذا الاختيار رأياً للمتأخرين اعتماداً على رأي الفراء^(١٦٢) .
- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ﴾^(١٦٣) قال: (إن شئت
رفعت (البر) وجعلت (أن تولّوا) في موضع نصب ، وإن شئت نصبته
وجعلت (أن تولّوا) في موضع رفع^(١٦٤) فلذلك اخترنا الرفع في (البر)^(١٦٥) .
وقد عرض غير واحد من أصحاب الاحتجاج هذه الآراء ، واختاروا ما
اختاره الفراء^(١٦٦) .

-
- (١٥٩) البقرة : ٧٨
(١٦٠) قرأ أبو جعفر المديني بالتخفيف ، وقرأ الباقر بالتشديد ، ينظر : النشر ٤٠٩/٢ ،
وإتحاف فضلاء البشر ص ١٣٩
(١٦١) معاني القرآن ٤٩/١
(١٦٢) ينظر : مثلاً - علل القراءات ٥١/١ ، والطبري ٢٩٨/١ ، والمحتسب ٩٤/١
(١٦٣) البقرة : ١٧٧
(١٦٤) قرأ حفص وحزمة بالنصب ، وقرأ الباقر بالرفع . ينظر : السبعة : ١٧٦ ، والتيسير :
٧٩
(١٦٥) معاني القرآن ١٠٣/١ .
(١٦٦) ينظر - مثلاً - علل القراءات ٧١/١ ، والمحتسب ١١٧/١ ، وحجة القراءات لأن
زنجلة : ١٢٣ .

- في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾^(١٦٧) قال: (وقد قرأ أهل الجحاز: (فاسر بأهلك) موصولة من (سريت)^(١٦٨) وقراءتنا (فأسر بأهلك من (أسريت) وقال الله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾^(١٦٩) وهو أجود^(١٧٠) .

وعلى هذه الشاكلة ، ونحوها كانت اختياراته^(١٧١) التي تُحمل - حسب تقديري - على الترجيح والمفاضلة بين القراءات ولاسيما المتواترة في إطار المعنى المستفاد الذي تؤديه القراءة ، وتوهم إلى الرواية ، بما توحى إليه سنن العربية وفنون القول فيها .

على أن مثل هذه الاختيارات والترجيحات لم تمنع الفراء - أحياناً - من ردّ بعض القراءات المتواترة وغيرها ، استناداً - كغيره من النحاة - إلى منهج اعتمده^(١٧٢) ربما أدى بهم إلى الوقوع في مثل هذه الآراء غير المقبولة ، نتيجة إنزال القرآن الكريم ، وتبعاً له قراءاته على قواعدهم العقلية ، ومناهجهم المنطقية ، فترى أحدهم يحتج بقول شاعر مجهول ، وربما ترك ما كان من قراءة باختلاف درجاتها ، أو ربما حكموه عليها ، وهذا المنهج إن تجوزناه في القراءات الشاذة فإنه لا يمكن بحال من

(١٦٧) الحجر : ٦٥ .

(١٦٨) وهي قراءة نافع وابن كثير ، وأبي جعفر ، ينظر : التيسير : ١٢٥ ، والنشر ١١٨/٣ .

(١٦٩) الإسراء : ١ .

(١٧٠) معاني القرآن ٢٣٣/٢ ، وينظر فيمن ذكر ذلك من المتأخرين عن الفراء : حجة القراءات لابن زنجلة : ٣٤٧ ، والكشف ٥٣٥/١ .

(١٧١) ينظر غيرها - على سبيل المثال - في معاني القرآن ١٢٤/١-١٢٥ ، ١٤٣ ، ٣٥١/٢ ، ٢٦٠ ت ، ٢٥٦/٣ .

(١٧٢) ينظر : النحويون والقراءات القرآنية ، زهير غازي زاهد - مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

الأحوال أن يقبل في قراءة متواترة ؛ إذ لابد من تصحيح المنهج والقواعد وفق كتاب الله تعالى الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَآ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١٧٣) .

ومن أمثلة ما رده الفراء من بعض القراءات المتواترة أو ضعفها التي وددنا أن يربأ مثل هذا الإمام بنفسه وهذا الكتاب القيم عن مثلها مايلي:

- قوله في قراءة: (شركائهم) بالياء من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ (١٧٤) (في بعض مصاحف الشام (شركائهم) بالياء^(١٧٥) .. وليس قول من قال بشيء . وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز ، ولم نجد مثله في العربية..^(١٧٦) .

ومثل هذا الزلل قد تبعه عليه من جاء بعده ، وذهبوا فيه مذهب الفراء ، فهذا أبو منصور الأزهرى يقول: (قال أبو منصور: أما قراءة ابن عامر فهي متروكة ؛ لأنها لاتجوز إلا على التقديم والتأخير، والذي قاله الشاعر كان غير جيد ولا حسن .

والمعنى على قراءته: زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم وأنشد الفراء ..

قال أبو منصور: وهذا عند الفصحاء رديء جداً ، ولا يجوز عندي القراءة بها ..^(١٧٧)

(١٧٣) فصلت : ٤٢

(١٧٤) الأنعام : ١٣٧

(١٧٥) وهي قراءة متواترة قرأ بها ابن عامر ، ينظر : السبعة : ٢٧٠ ت، المصاحف : ٤٥ ت ، التيسير : ١٠٧ .

(١٧٦) معاني القرآن ٣٥٧/١ - ٣٥٨ و ٨١/٢ - ٨٢

(١٧٧) علل القراءات ٢٠٤/١ - ٢٠٥ ، ومثله في إنكارها : الطبري، وللزمخشري ، وابن

عطية كما في البحر لأبي جيان ٢٢٩/٤ .

- وفي قراءة (لا يَأْتِكُمْ) من قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾^(١٧٨) قال: (وقد قرأ بعضهم: (لا يَأْتِكُمْ)^(١٧٩) ولست أشتبهها ، لأنها بغير ألف كتبت في المصاحف وإنما اجتراً على قراءتها .. أنه وجد: ﴿وما أَلْتَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١٨٠) في موضع ، فأخذ ذا من ذلك^(١٨١) .

فهذه القراءة سنة متبعة - كما هو معلوم - قرأ بها أئمة ثقات ، أجمعت أمصارهم على قراءتهم وإمامتهم ، كأبي عمرو ، ويعقوب ، ثم هل القراءة تخضع لما يشتهي الرجل ويختار؟! وقوله - رحمه الله - وإنما اجتراً على قراءتها .. يوحى ويوهم أن القراءة اجتهد من القارئ ... ! ومن هو القارئ؟! إنه أبو عمرو بن العلاء الذي يقول: (لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرأتُ لقرأتُ حرف كذا كذا ، وحرف كذا كذا)^(١٨٢) فائمة القراءة - كما يقول أبو عمرو الداني -: (لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأقسى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية، ولا فسوّ لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها)^(١٨٣).

ثم إن الفرء - رحمه الله - رغم حملته هذه على بعض القراءات المتواترة ، واتهامه بعض القراء أنه يقرأ باجتهاده ، أو يجترئ على ذلك فقد رأيت في مواضع متعددة من معانيه ربما افترض قراءات من تلقاء

(١٧٨) الحجات : ١٤

(١٧٩) وهي قراءة متواترة قرأ بها أبو عمرو ، ويعقوب بألف مهموزة ، وقرأ الباكون بغير ألف ، ينظر : السبعة : ٦٠٦ ، والتيسير : ٣٠٢ ، والنشر : ٨٠٦ .

(١٨٠) الطور : ٢١

(١٨١) معاني القرآن ٧٤/٣

(١٨٢) ينظر : النشر ١٧/١

(١٨٣) نفسه ١٠/١ - ١١

نفسه ، بناء على ما يجيزه قياس العربية ، أو الذوق اللغوي له ، كقوله - مثلاً - (ولو قرئ بكذا لكان صواباً) ^(١٨٤) ، وقوله: (ولو نصبته بإضمار (جعل) لكان صواباً) ^(١٨٥) وقوله: (فلو قرئت (أجرامي) كان صواباً) ^(١٨٦) وقوله: (ولو كان جميعاً رفعا ونصباً كان صواباً) ^(١٨٧) إلى غيرها من العبارات ^(١٨٨) التي لا مكان لها في ميزان الصحيح المشهور والمتواتر من القراءات ، لأن القراءة سنة متبعة ، يأخذها الآخر عن الأول ، لا مجال فيها للافتراض أو القياس ، كما هو مقرر عند العلماء ^(١٨٩) لكن يمكن الإفادة منها من حيث اللغة فحسب ، ولعل هذا هو مراد الفراء من تلك الافتراضات كما هو ظاهر العبارات والسياق والله أعلم .

● الخاتمة:

انتهى بنا المطاف الذي من أجله قام هذا البحث بنتائج علمية ، من أهمها:

- سجل لنا (معاني القرآن للفراء) ومعه (معاني القرآن) للأخفش ما كان عليه أمر الاحتجاج في مطلع القرن الثالث الهجري حيث وضعت معظم أصول توجيه القراءات في هذه الحقبة ، فهو إذن يمثل المرحلة الأولى والخطيرة في هذا الفن.

- من الحقائق الخالدة أن قيمة كل كتاب مستمدة من الإضافة التي يوجدها في الفن الذي أُلِف فيه ، وفي نظري ، وحسب ما توصلت إليه في هذه الدراسة أن أكبر إضافة في هذا الفن كانت على يد الفراء في معانيه .

(١٨٤) معاني القرآن ٤٦/١ .

(١٨٥) نفسه ١٣/١ .

(١٨٦) نفسه ١٣/٢ .

(١٨٧) معاني القرآن ٢١/٢ .

(١٨٨) نفسه ينظر : مثلاً - ١٦/٢ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٦/٣ ، ١١ ، ١٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٦٩ ..

(١٨٩) ينظر : السبعة : ٥١-٥٠ .

- أن قيمة كتاب (معاني القرآن) للفراء لا تنحصر - كما هو ظاهر عنوانه - في شرح المفردات ، أو التراكيب من آيات القرآن الكريم ، واستجلاء معانيها ؛ وإنما تظهر له قيمة أخرى لا تقل عن السابقة أهمية ، وهي تأسيسه لفن توجيه القراءات وتعليلها ، فقد استحوذت على النصيب الأكبر من الكتاب .

- قراءة آراء المؤلف في هذا المجال عكست لنا ثقافته وثقافة فترته الزمنية التي أُلِف فيها كتابه ، حيث ظهر لنا النضج والعمق في تناول هذا الفن ، وأنه صار واضح المعالم بيّن الحدود .

- في توجيهه للقراءات رأينا انعكاس المستويات الثقافية لفنون عدة ؛ حيث استخدم المؤلف أصولاً عديدة ، منها اللغوية ؛ كالنحوية والصرفية ، والصوتية ، والدلالية ، ومنها ما يتعلق برسم المصحف ، والإسناد الذي يتعلق بمعرفة الرواية والأثر ، والانسجام بين الآيات ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على سعة تكوينه العلمي ، والمعرفي ، والعقلي ، وما ترتب على هذه المكونات من ميل إلى آرائه وإعجاب بها من قبل من جاء بعده ، ومن ثم التأثير بها وبمنهجه وعلمه. فقد أصبح - في هذا الميدان وغيره - إماماً تتقدم آراؤه وتتصدر في مؤلفات أصحاب هذا الفن ، وأشباهاها ، يعلّلون بما يعلّل به ، ويقعدون بما يقعد ، يقبلون - في الغالب - ما يقبله ، ويردون ما يرده .

- لقد أفاد من تلك الحجج والأصول سائر العلماء على اختلاف فنونهم الشرعية واللغوية ، والمنطقية ؛ وما ذلك إلا لشمولية معارف هذا الإمام ، وكذا ما يعرج عليه أثناء تعليلاته ، ففي التفسير تارة ، وباللغة تارة ، وبعلم الرواية والأثر ، ثالثة ، وفي اللهجات والعقيدة ، والفقه تارات فيما يتصل بالقراءات وتعليلاتها .

- لا نزع ، أو ندّعي أن كل ما جاء من تلك الأصول والعلل ،
والاحتجاجات عند من جاء بعد الفراء هي نقل عن الفراء -حاشا - وإنما
نقول: إن له مع غيره ممن عاصره وسبقه فضلاً لا يستهان به على أولئك
في وضع لبنات هذه الأصول ، ورسم معالم الطريق الذي ساروا عليه
وأتمّوه .

- شمولية تلك الأصول والتعليلات للقراءات على اختلاف درجاتها ، فلم
يكن يفرّق بين قراءة متواترة أو غيرها ، حيث لم تتضح في عصره قسّمات
القراءات المتواترة من غيرها، لذا رأينا أن كلّ من تصدى لتعليل القراءات
في كتب الاحتجاج ، أو كتب التفسير ، أو المعاني بأي درجة كانت رأيناهم
استفادوا من الأصول ، والعلل التي وضعها ، أو أرساها الفراء ،
فالأزهري - مثلاً - قد جعله مصدراً رئيساً من مصادر كتابه (علل
القراءات) ، وابن جني يصرّح في مقدمة كتابه (المحتسب) باعتماده على
كتاب الفراء ، ومكي بن أبي طالب ينقل في كتابه (الكشف) نقلاً واضحاً
عن الفراء ويصرّح بذلك ، وتردّد اسم الفراء في كتاب (حجة القراءات)
لابن زنجلة أكثر من ثمانين مرّة .

- تميزت تعليقاته واختياراته في هذا الفن مجيئها - في الغالب - مصحوبة
بعرض للآراء الأخرى ومناقشتها ، وكذلك نكر سبب اختياره لأحدها ، أو
الخروج عليها بآراء جديدة لم يسبق إليها ، وأحياناً قيامها على التوفيق
والجمع بين الآراء ، كل ذلك جعل منها آراء معتبرة ينهل منها المخالفون
قبل الموافقين لمذهبه أو مدرسته .

- لا يستظهر المطلع على آراء المؤلف أن المصنف اتبع خطة واضحة في
رسم الحدود الفاصلة بين أصليين عظيمين يحتكم إليهما في توجيه القراءة ،
وهما الرواية ، والقاعدة اللغوية ، فهو تارة يُضعف القراءة لمخالفتها

العربية ، وتاريخ يعتذر للقارئ باتباع الرواية مع عدم موافقتها لمشهور القاعدة اللغوية .

- ربما وقع الفراء - أحياناً - في اتهام القراء بالجهل ، والوهم ، وعدم معرفة العربية ؛ لذا فقد لا يأبه لرد قراءة ولو كانت سبعية أو متواترة ، ولا يرى في ذلك شيئاً من الحرج ، وهذا راجع إلى أن اهتمامه - مع معاصريه - كان موزعاً على القراءات جميعها قبل تسبيع القراءات ، ولكثرة القراءات الصحيحة ، وهذا كما بينا لا يبرر مثل ذلك الهجوم على القراءات أو قرائها .

وفي ظني أن هذا الموضوع ذو حلقات متعددة ، ومتواصلة تحتل الكثير من الدرس والوقفات عند أئمة آخرين ، وما قمت به لا يعدوا أن يكون الخطوة الأولى في طريق طويلة .

والله وحده المستعان وعليه التكلان

• ثبت المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للبناء المياطي ، تصحيح علي محمد الضباع . بيروت - دار الندوة الجديدة .
- إصلاح المنطق لابن السكيت ، تح: أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ٢ ، ١٣٧٥هـ .
- إعراب القراءات السبع وعللها . لابن خالويه .: تح: د. عبدالرحمن العثيمين . مكتبة الخانجي ، القاهرة . ط ١ ، ١٤١٣هـ .
- إعراب القرآن . للنحاس . تح: د. زهير غازي زاهد . مكتبة النهضة . بيروت . ط ٢ ، ١٤٠٥هـ .

- إملأ مامناً به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات . للعكبري . دار الكتب العلمية ، بيروت . ط ١ ، ١٣٩٩هـ .
- إنباه الرواة على أنباه النحاة . للقفطي . تح: محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الفكر العربي ، القاهرة . ط ١ ، ١٤٠٦هـ .
- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، تح: عرفان العش حسونه . المكتبة التجارية ، مكة المكرمة .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . للسيوطي . تح: محمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية ، بيروت .
- البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات ابن الأنباري . تح: د. طه عبد الحميد طه . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٠هـ .
- تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري . تح: أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت . ط ٣ ، ١٤٠٤هـ .
- التطور النحوي للغة العربية . لبرجستراسر . تعليق د. رمضان عبدالقواب . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ .
- تهذيب اللغة ، للأزهري . تح: عبدالسلام هارون وآخرين . الدار المصرية للتأليف والترجمة . سلسلة تراثنا - ١٣٨٤هـ .
- التيسير في القراءات السبع ، لأبي عمرو الداني . عني بتصحيحه / أوتويرتزل ، بيروت . دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، لابن جرير الطبري ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٣هـ .
- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، بيروت ، دار إحياء التراث ، ط ٢ ، ١٣٧٢هـ .
- حجة القراءات ، لأبي زرعة بن زنجلة . تح: سعيد الأفغاني . بيروت . مؤسسة الرسالة ، ط ٤ ، ١٤٠٤هـ .
- الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه ، تح: عبدالعال سالم مكرم ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ .
- الحجة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي ، تح: بدر الدين قهوجي ، بشير جويحاني ، بيروت ، دار المأمون للتراث ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ .

- الخصائص ، لابن جني ، تح: محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ.
- ديوان المتلمس الضبعي . تح: حسن كامل الصيرفي . عالم الكتب ، القاهرة ١٣٩٠هـ .
- السبعة في القراءات ، لابن مجاهد . تح: شوقي ضيف ، مصر ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ .
- شذور الذهب ، لابن هشام . تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة .
- طبقات النحويين واللغويين ، لأبي بكر الزبيدي . تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٢ .
- علل القراءات، لأبي منصور الأزهري ، تح: نوال الحلوة ، ط١ ، ١٤١٢هـ.
- العين ، للخليل بن أحمد . تح: د. مهدي المخزومي ، و د. إبراهيم السامرائي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .
- الفهرست . لابن النديم . دار المعرفة ، بيروت .
- في اللهجات العربية ، لـ د. إبراهيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٦ ، ١٩٨٤م .
- الكتاب. لسيبويه. تح: عبد السلام هارون . عالم الكتب، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ .
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، لمكي بن أبي طالب ، تح: د. محيي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . ط٤ ، ١٤٠٧هـ .
- لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، بيروت .
- اللغات في القرآن ، لابن عباس . تح: صلاح الدين المنجد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٣٩٨هـ .
- اللهجات في " الكتاب " لسيبويه أصولاً وبنية . لصالحة راشد آل غنيم ، نشر/ جامعة أم القرى . دار المنني للطباعة والنشر والتوزيع . ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- المبسوط في القراءات العشر ، لابن مهران الأصبهان . تح: سبيع حمزة حاكمي . دار القبة للثقافة الإسلامية ، جدة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ .
- المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش ، وابن محيى ، واختيار خلف واليزيدي ، تأليف / أبي محمد بن علي المعروف بسيط الخياط البغدادي ، . تح: د. وفاء عبد الله قزمار . جامعة أم القرى ، قسم اللغة العربية ١٤٠٤-١٤٠٥هـ

- مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، تح: محمد فؤاد سيزكين ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠١هـ .
- مجالس العلماء ، للزجاجي . تح: عبدالسلام هارون . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ .
- المحتسب في تبیین شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني ، تح: د. عبد الحليم النجار وآخرين . دار سزكين للطباعة . ط٢ ، ١٤٠٦هـ .
- مجلة آداب المستنصرية ، بغداد ، العدد الخامس عشر ، ١٤٠٧هـ بحث بعنوان: النحويون والقراءات القرآنية ، لزهير غازي زاهد .
- مختصر في شواذ القراءات ، لابن خالويه . تح: ج. برجستراسر ، دار الهجرة ، بيروت .
- مدرسة الكوفة ، لـ د. مهدي المخومي ، مصر ، مطبعة البابي الحلبي ، ط٢ ، ١٣٧٧هـ .
- مراتب النحويين . لـ عبدالواحد بن علي اللغوي . تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار نهضة مصر .
- المسند . للإمام أحمد بن حنبل . المكتب الإسلامي ، بيروت . ط٢ ، ١٣٩٨هـ .
- المصاحف ، لأبي بكر السجستاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- معاني القرآن ، للأخفش . ت د. فائز فارس . الشركة الكويتية لصناعة الدفاتر ، ط٢ ، ١٤٠١هـ .
- معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج . ت د . عبد الجليل شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠هـ .
- معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ، دار إحياء التراث ، بيروت .
- النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، تح: علي محمد الضباع ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- وفيات الأعيان ، لابن خلكان . تح: د. إحسان عباس . دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ .